شاعر الحب والفلوات

ذو الرُّمَّة

محمود محمد شاكر

— ١ —

« ذو الرُّمَّة: لقبٌ غَلَبَ عليه، واسمهُ « غَيْلان بن عقبة بن مسعود » من بني عدي بن عبد مناة. وأمه «ظبية بنت عبيد أو بنت مصعب» من بني أسد. وإخوته لأبيه وأمه: « مسعود » و « هشام » و «جرفاس» وكلهم شعراء. وكان هشام من عقلاء الرجال. وخاله أبو جِنَّة الأسديّ « حكيم بن عبيد أو ابن مصعب » وكان شاعراً. وابن عمّه « أوفى بن دلهم العدوي » وهو أحد من يَرْوِي عنهم الحديث، وكان رجلاً صالحاً. وصاحبته ميّ بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقريّ. وجدها قيس بن عاصم هو الذي قال فيه رسول الله: هذا سيد أهل الوبَر. ثم شبَّب ذو الرمة بخرقاء العامرية ليكيد بها ميّة — وذلك قبيل وفاته بقليل — ثم نزع إلى صاحبته حتى مات »

قبس يتوقّد في عيني هذا الغلام البدويّ النحيف، وقد أخذت أمه بيده تريد ذلك الشيخ سيد بني عديّ بن عبد مناة « الحُصَين بن عبدة بن نعيم العدوي » وجاءت المسجد والناس على صلاتهم، حتى اذا ما انفتلوا عن موقفهم، وانفضّوا عن إمامهم أقبلت عليه: يا أبا الخليل إن ابني هذا يروَّع بالليل كأنما يفزِّعه شيطان، وإني لأخاف عليه، فاكتب لي معاذة أعلقها على عنقه. قال الشيخ: ائتيني برَقّ أكتب لك فيه. قالت: فإن لم يكن، فهل يستقيم في غير رقّ أن يكتب له؟ قال: فجيئيني بجلد. فانطلقت الأم الوالهة حتى أتته بقطعة جلد غليظ، فكتب الشيخ له معاذة فيه، فعلقتها في عنقه مشدودة على يساره في حبل أسود فمكث الغلام بها ما شاء الله أن يمكث، حتى قال شعراً. ومرّت أمه بالذي يزال بعض

حوائجها ، فلما كانت ببعض الطريق ، مرّت بالشيخ سيد بني عديّ بن عبد مناة ، وهو جالس في ملإ من أصحابه ومواليه . دنت وسلّمت وقالت : يا أبا الخليل : هذا غلامك غيلان قد شبّ وقال ، ألا تسمع قوله وشعره ؟ قال : بلى يا أم مسعود ! فتقدّم الغلام فأنشدهم ، فاذا أبلغ قائل ، وأنطق متكلم ، وأحسن صوت في أحبّ إنشاد ، كأنما يرتل مزامير داود . قال الشيخ لقد أنجبت يا أمّ مسعود ! أحسن ذو الرمة ! وإنهُ لشاعرٌ ! فمن يومئذٍ ذهب بلقبه « ذي الرمة » ، لذلك الحبل الاسود البالي الذي كان في عنقه ، والذي كانت فيه المعاذة . (والرمة قطعة من حبلٍ بالية)

ولم يلبث أن خرج الغلام «ذو الرمة» ، هو وأخوه مسعود وابن عمه (أوْفى) ، في بغاء إبلٍ ضلّت لهم، حتى اذا أجهدهم العطش، ووردوا ماءً. واذا خِوَاءٌ عظيم. فقال مسعود لأخيه الغلام : إيت الخِواء فاستسق لنا . فانطلق ، فاذا عجوزٌ جالسة فاستسقاها . فالتفتت وراءها وقالت: يا ميّ! اسقِ الغلام !... ودخل ذو الرُّمة على ميّ وهي تخيطُ ثوباً لها،وهي تتغنّى بأرخم صوت :

يا من رأى برقاً يمرُّ حيناً ؟ زمزمَ رعداً وانتحى يمينا
كأنّ في حافاتِهِ حنينا أو صوتَ خيلٍ ضُمَّرٍ يردينا

فقطعت غناءها، وقامت اليه تصبُّ في قربته من الماءِ. وعلى الفتاة بُرْدٌ فارسيٌّ لا جيب ولا كمّ يسمونهُ «الشوذر». فلما مالت على القربة تصب، رأى ذو الرُّمة فلها بالنظر اليها... غلامٌ متوقدٌ ينظر من عيني باز ، إلى فتاة أحسن من النار الموقدة في الليلة القرة في عين المقرور، مسنونة الوجه، أسيلة الخد، شماء الانف،خمصانة الجيد، هيفاء أملود، وافرة الشعر، عليها وسم جمال ، تنظر عن عيني غزال. فجعل يستطعم حديثها ، حتى انطلقت تحدثهُ وتحدّثها، والماء يذهب يميناً وشمالاً. رقّت الفتاة للغلام حين تمّ صوتهُ على هواه. فقالت له: ياذا الرمة ! لقد كلفك أهلك السفر، على ما أرى من صغرك وحداثة سنك !! وتفطن لها العجوز،وتقبل عليهما ، وتقول : يا بنيّ! ألهتك ميّ عما بعثك أهلك له ! أما ترى الماء يذهب يميناً وشمالاً ؟ فلم يغنِ أن يقول لها يا أماه ! أما والله ليَطولنّ هيامي بها !! ... ثم ملأ قربتهُ وينصرف، ويأتي أخاه وابن عمه . ولم يطل به الامر حتى أخذه من هواه ما قرب وما بعد : فيلف رأسهُ، وينتبذ دونهما ناحية ، حتى دنا رحيلهم فارتحلوا ، وميّ أحلام ليله ونهاره

وشبّ الغلام في وَهج الحبّ . في سعير الحرمان ، فاذا هو شابٌّ آدم، رقيق البشرة ، مدوّر الوجه ، أكحل حلو العينين، براق الثنايا، حسن المضحك ، أقنى الانف، أروع الرأس، حسن الشعرة جعدها ، خفيف العارضين .... بدويٌّ جميل المنظر ، لوّحته البيد والاسفارُ ، وإذا هو يفترع عن شاعر عاشق مثلهم لمحبّي الصبابة،لا يشكو الحبّ أحد أحسن من شكواه، مع عفةٍ وعقل رصين . وإذا هو يتعشق الأطلال في البوادي والقفار،فيقف عليها متأملاً قد

تقذف به أشواقه إلى سرّ الرمال ، فلا ينعت الفلوات ، وسرابها ، وأسفارها ، وسمّيرداء وما فيها من شيء ... شاعر ، أبرع من نعته . ويتسامع الناس بهذا « الغلام من بني عديّ » الذي يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات ، حتى يحسده فحول الشعراء كجرير والفرزدق ، فيؤخروا ذكره لما يرون من حداثة سنه ، وأنه لا يحسن من الشعر ما يحسنون . .. هذا المدح ، وهذا الهجاء ، وهذا الفخر !!

ولكن الفتى البدويّ العاشق يندفع الى الحضر فيكثر أن يأتي الكوفة والبصرة يدعُ رجز أهل البادية ، ويأخذ في القصيد . ويلمّ بأهل الحضر فإذا هو عندهم من أظرف الناس وأرقهم : بدويّ عاشق ، عفيف الطرف ، عذب المنطق . إذا نازع أحداً الكلام لم يسأم حديثه ، وإذا تكلّم تكلم أبلغ الناس ، يضع لسانه حيث شاء ، لم يكن أحد من القوم أحلى كلاماً ، ولا أجلى منطقاً ، ولا أحسن جواباً منه ، حتى كانوا يرون أن كلامه أكبر من شعره

ولم يزل الفتى يتردد بين ديار ميّ في بلاد بني منقر ، وبين دياره في بلاد بني عديّ ، وبين الكوفة والبصرة . فتجلو أرض الحضر وحديث أهلها بعض ما في نفسه من جفاء البادية ، حتى إذا لجّ به هواه عاد إلى بلاد ميّ ينظر الديار بعينين شاخصتين ، فإذا خفّ ما به انقلب إلى أهله ، يحادث بيهم قلبه . ولا يزال يردد ذكر ميّ حتى عرف بها وعرفت به ، ولم يكن ما به إلاّ هوى فتى لفتاة هو عليها — إن شاء — قادر . فقنع بذكرها وحبها زمناً ، وجعلت عناصر المأساة تتجمع من هنا ومن هناك ومن ثمّة ، وذو الرمة في أسفاره يتطوح بين البوادي والحضر ، يستزير طيف ميّ على البعد ، قد عمي عن نجاءات الغير !

لم تلبث ميّ أن تزوجت أحد رجال قومها : « عاصماً المنقري » ، نسيت الغلام الذي عجبت منه ومن أخيه مسعود ، يوم

« وأنّ غلامَي سَفَرٍ بعيد يَدَّرِعان الليلَ ذا السدود »
« مثل ادّراع اليَلْمَقِ الجديد »

نسيت ميّ عينيه تنظران في عنقها ، وهي تصبّ له الماء في قربته ، فيشغلها الحديث ويشغله ، فيذهب الماء يميناً وشمالاً . نسيت ذلك الطيف الذي انبعث في صوت الغلام يدعو هواها إلى هواه . لم تأبه لذلك القلب الغض الذي تنسمها فاستراح ، ثم فارقها ليتعبّد لها ولطيفها في الليل والنهار . . . ... صدى كلماته وهو يقول لأمها : « أما والله ليطولنّ هيامي بها » ، فلم تجد لها في نفسها رجعاً

ويعرف ذو الرمة خبر زواج ميّ ، فيجن جنونا

يومئذ ينبثق ينبوع الشعر في قلب هذا البدوي العاشق المحروم . الأمل ، اليأس ، الرحمة ،

الدمع ، الصبوة ، الاحلام ، وساوس القلب ، ديارها، زوجها ، أخوها ، القدر ، الذكريات ، النظرة الاولى . . . كل هذه أخذت تتدفق في خطرات قلبه تحت الضربة الأولى من ضربات الغيرة المغيظة ، المحنقة ، الحاقدة . مي . . . مي . . . مي . . . ، هكذا يتردد صدى الضربات الملحة التي لا تفتر ولا تنقطع . . . مي . . . مي . . . مي . . . ، صدى يتردد في أذنيه من عن يمينه وشماله ؛ قد ملأ عليه أرضه وسماءه

***

مي . . . مي . . . وتضرمت الروح باللهب القدسي ، وانبعثت في عيني « ذي الرمة » تلك الشعلة الخالدة التي لا يطفئها شيء ، وأكلت النار التي لا تخبو كل غشاء كان يحول بينه وبين مي . وإذا الفتى اللاهي جليد « قد حلمته المشاعر » . ويخرج من بلواه . . . من غيرته . . . من أحقاده ، قد نصب وجهه لهجير الحياة ، فإذا قسماته تتوهج بالعزم ، والصبر ، والمغالبة ، وفي عينيه تلك النظرة النافذة . . . الساكنة ، ثابتة لا تهزم

لقد كان أحب فتاة هو عبثها — إن شاء — قادر ، وهو اليوم يحب امرأة قد ضمها بخدر بعلها ، فلا سبيل له عليها . أحب الفتى فتاته ، ولكنه اليوم رجل يحب أنثى قد تصدى وجودها لوجوده . ذهب الفتى وذهبت الفتاة ، وبقي الرجل والمرأة

أي سر عجيب مس الفتاة اللاهية المتقلبة فإذا هي تستحيل إلى وجود كامل . . . إلى قلب يسع الدنيا . . . إلى حب ثابت حافل ؟ أي سر هذا الذي يحيل عاشقها الفتى إلى قوة زاخرة منشئة مبدعة متجلية ، لا تقف ولا تتردد ؟ أي سر فيها يمنح العين دقة ونفاذاً ؟ أي سر ينفث في البصيرة وعياً مستوعباً لا يضيق ؟ بل أي سر هذا الذي يرد إلى العبد حريته ليزداد في حريته تعبداً للرق ؟

وينظر ذو الرمة فيرى الأنى قد سبقنه بين يديه . فما من شاعر من العشاق إلا قد ابتلي بمثل ما ابتلي به : امرأة ذات بعل لا سبيل له عليها . أهي إذن « المرأة » وحدها لا الفتاة ؟ أهي وحدها التي تحقق له معنى وجوده ؟ فليذهب ليخالس الطارف إلى بني زوج « عاصم المنقري » . ويركب ناقته « صيدح » ، حتى إذا انتهى إلى ديارها لمح « ميا » مع الصبح بعقب النهار

وتجلو بفرع من أراك كأنه | من العنبر الهندي والمسك يصبح
ذرى أقحوان واجه الليل وارتقى | إليه الندى ، من رامة ، المتروح
هجان الثنايا مغرباً لو تبسمت | لأخرس عنه : كاد بالقول يفصح
هي البرء والأسقام ، والهم ، والمنى ، | وموت الهوى ، لولا التنائي المبرح

ويعود « ذو الرمة » إلى ديار أهله ، إلى أخيه مسعود ، إلى الذي جعل يركب معه

الفلوات ، يطيبه تارة حين يشوقه على ديار مي ، ويمصيه تارة أخرى ويتومه . ولم يزل ذاك أمره ، يهيم في ديار مي أكثر من عشرين سنة ، ومي لا تزداد في عينه إلا ملاحة ، ويتفجر شعره من قلبه ، يشكو ما يلقاه من حبها ، وما يقاسيه من الوجد في الحنين إليها والوجد بها . ولا يلقى صاحبته إلا والحي خُلوف ، لم يبق في الديار إلا النساء ، فيشكو لها ويتوجع ، فتمسح عنه بعض عذابه . ويتردد شعره بين البادية والحضر فلا يزال يعجب الناس ويحسده الشعراء .

وبلغ الشوقُ بذي الرمة يوماً ، فيركب ناقته في ليلة ظلماء يريد أن يضيف « عاصماً المنقري » زوج ميّ ، وهو يطمع في أن لا يعرفهُ فيدخله بيته ، فيقريه ، فيرى ميّاً ، ويتزوّد من وجهها ، ويكلمها . فلما نزل به فطن له عاصم وعرفه ، فلم يدخله ، وأخرج إليه قراه وتركه بالعراء ، فلمحته مية تحت الإبل فعرفته . وجعل ذو الرمة يتململ ، فلما كان في جوف الليل تغنى غناء الركبان ببعض شعره :

أراجعة يا ميّ أيامنا التي ... «بذي الرمث» أم لا؟ ما لهن رجوع!
ولو لم يَشُقْني الظاعنون لشاقني ... حمام تغنّى في الديار وقوع
تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى ، ... نوائح ما تجري لهنّ دموع!
دعاني الهوى من نحو ميٍّ ، وشاقني ... هوًى من هواها ، تالد ونزيع
إذا قلت عن طول التنائي قد ارعوى ، ... أبى مُنْثَنٍ منه عليّ رجيع

فغضب عاصمٌ ، وقام إلى امرأته وقال : قومي فصيحي به وسبيه ، وقولي : أي أيام كانت لي معك « بذي الرمث » ؟ فأبت مي وقالت لزوجها . يا سبحان الله ! ضيف !! والشاعر يقول ! فانتضى عاصم سيفه وقال لها : لأضربنك به حتى آتي عليك أو تقولي ! ففزعت وصاحت بذي الرمة وسبته كما أمرها زوجها . هذا صوت ميّ !! ذُهل ذو الرمة ، فلما استقر في سمعه كلامها ، نهض إلى راحلته فركبها ، وانصرف عنها وعن ديارها مغضباً يريد أن يصرف قلبه عنها إلى غيرها . وعاد إلى دياره وقلبه ممعناً يتمزّق ، وأبى على نفسه ذكر مي . . . وهيهات

وجاء فكذرة ، فخرج في سفر في بعض أصحابه ، فلما كان بفلج — في طريق الحاج من البصرة إلى مكة — إذا هو بخارجات من بيت يردن آخر ، وفيهن جارية طويلة ، حسنة ، حلوة ، شهلاء ، بها قَوَة . فنظر إليها فوقعت في نفسه وفي قلبه الغيظ والحنق . وذكر ميّاً فأراد هذه يكيدها بها إذا تناقل الناس ما بينه وبينها ، وما يقول فيها . فأخذ إداوته فخرّقها ، ودنا من هذه الجارية يستحي حديثها فقال : إني رجل على ظهر سفر ، وقد تخرقت إداوتي فأصلحيها . فنظرت إلى عينه وقالت له مزرأته : والله إني ما أحسن أعمل ، وإني لخرقاء !! والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئاً لكرامتها على أهلها ، فسماها يومئذ خرقاء . وانطلق يشبب بها ويذكرها

في بعض شعره ، يريد أن يغيظ بذلك ميّا ، فرمى إليها أول ما رمى ببيت تداولته الرُّواة

تمام الحجّ أن تقف المطايا على خرقاءَ واضعةَ اللثام

جعلها منسكاً من مناسك الحج ، لا يتم إلاّ به !! ولكنه كان لا يطيق أن يدع ذكر مي فلم يقل في خرقاء الاّ قصيدة أو قصيدتين ، ورجع إلى ميّ

ثارت نفس ذي الرمة ثورتها على مي ، وقلق ، فاضطرب في البلاد حتى أبعد ، فذهب إلى أصبهان ، فلم يطق أن يقيم بها فعاد إلى دياره... صبيٌّ مروَّع يتفزّع بالليل ، وغلامٌ عاشق يتزوّد بعينيه من ميّ نظرة بعد نظرة ، وبين جنبيه نفس ملتاعة يحرّقها الوجد في وقدة البيد تحت الشمس السافرة ، ثم شابٌّ تأكل الغيرة قلبه ، يثور بالليل والنهار فزعاً إلى مي ، إلى المرأة التي لا سبيل لهُ عليها إلاّ بالوساوس والأوهام . الى أين ومن أين ؟ من البادية ... إلى الحضر ... إلى البادية .. من الديار ... إلى الاطلال ، ومي تناديه في سرّ روحه فيهوي إليها كأنهُ شهاب تتقاذفهُ الفضاء . فلم يلبث ذلك الشاب القصير النحيف الخفيف العارضين ، أن استحال شيخاً شخْتاً دقيق العظام قد براهُ الحب والضنى ولمّا يشرف على الاربعين . حتى إن أمة لتقول ، وقد تحلق الناس عليه واجتمعوا . فأنكر — من لم يعرفهُ — دمامته ، : أيها القوم اسمعوا إلى شعره ، ولا تنظروا إلى وجهه !!

فلم يلبث ذو الرمة على ذلك أن اشتكى « النُّوطة » — وهي زيادة تحدث في النحر كأنها غُدَّة ، تمور بين الجلد واللحم إذا حركتها — فرجع بها دهراً حتى قال :

أنِفتْ كلابُ الحي حتى عرفنني ومُدّت نساج العنكبوت على رحلي

فلما تماثل عزم على أن يخرج إلى الشام ، إلى هشام بن عبد الملك ، فقال لأخيه مسعود : يا مسعود ! قد أجدني تماثلت ، وخفّت الأشياء عندنا ، واحتجنا إلى زيارة بني مروان ، فهل لك بنا فيهم ؟ فقال نعم ! فأرسلهُ إلى إبله يأتيه منها بلبن يتزوّده ، وواعده مكاناً . وركب ذو الرمة ناقته فقمصت به ، وكانت قد أعفيت من الركوب ، فانفجرت النوطة التي كانت به . فلما بلغ موعد أخيه جهد فقال : أردنا شيئاً وأراد الله شيئاً . وإن العلة التي كانت بي قد انفجرت . فمكث أياماً حتى ثقل ، وكان معه من أخواله الحجاج الأسدي فسأله : يا غيلان ! كيف تجدك ! فقال : أجدني والله يا أبا المثنى اليوم في الموت لا غداة أقول :

كأني غداة الزُّرق يا مي مدنف يكيد بنفسي قد أجمّ حمامها

فلما احتضر كان آخر ما قاله :

يا ربّ قد أشرفت نفسي ، وقد علمت علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري

يا مخرج الروح من جسمي إذا احتضرت ، وفارج الكرب ، زحزحني عن النار

فمن مبلغ ميّا منية هذا القلب الذي شب في حبها حتى هرم قبل حين هرم !!